الفشل التداولي في فكر (جيني توماس) مع تطبيقاته في اللغة العربية

أ.م.د. باسم خيري خضير

&

م.م. سلام عباس محمود

جامعة المثنى - كلية التربية للعلوم الإنسانية

مستخلص

يغور هذا البحث بعيدا للحديث في الفلسفة اللغوية، وتحليل أسباب ضعف التواصل بين المتكلمين، فإن كثيرا من قضايا فشل التواصل أو ضعف الفهم لا يعود سببها إلى فشل في صياغة القواعد اللغوية (الصرفية والتركيبية...) فحسب، بل بسبب فشل المتلقي في فهم قصدية المتكلم. فقد أُهمل الفشل التداولي في أغلب نظريات التحليل اللغوي، ولم ينتبه إليه علماء اللغة كثيرا، مع أن مصداقه كثير في تراثنا اللغوي وواقعنا المحكي.

قمنا في هذا البحث بتحليل أفكار عالم اللسانيات (جيني توماس) حول الفشل التداولي، ومن ثم الاستفادة منها في واقعنا اللغوي العربي عبر بعض التطبيقات المهمة. فيتجلى الفشل التداولي كثيرا نتيجة اختلاف الثقافات بين المتكملين، سواء العرقية أو الطبقية أو الاجتماعية أو السياسية، أو بعدم اشتراك طرفي الخطاب بخلفية ثقافية واحدة.

قسم البحث على المحاور الآتية:

أولا: دور السياق الثقافي والأبستمولوجي في حصول الفشل التداولي.

ثانيا: أثر فهم القوة التداولية في تفسير حالات الفشل التداولي.

ثالثا: الفرق بين الفشل التداولي والخطأ التداولي في فكر (جيني توماس) فالخطأ التداولي مرتبط بالفشل النحوي، الذي يكون عادة محكوما بضوابط صارمة قطعية، بينما الفشل التداولي لا تكون ضوابطه صارمة، بل محكومة بتغيرات السياق وثقافة المتكلمين.

رابعا: أهم المصطلحات القريبة من الفشل التداولي، كالاستعجال النطقي، والانتهاك لمبادئ الحوار، والخلط اللغوي.

خامسا: مواطن حصول الفشل التداولي، سواء في المحادثات اليومية، أو في الأخطاء في عمليات التدريس، أو في حالات التواصل مع الأجانب الوافدين.

سادسا: الاحتراز من الفشل التداولي عبر توخي المتكلم مبادئ التداولية وإحكام استعمال أفعال الكلام، وكذا تدريس التداولية في مدارسنا.

وخلص البحث إلى نتائج نحسب أنها مفيدة.

المقدمة

ننطلق في هذا البحث مع تيار التحليل اللغوي عند فلاسفة اكسفورد، الذين ذهبوا تبعا لنظريات التحليل اللغوي للغة العادية ونخص الفيلسوف (لودفيغ فجستاين)، وهو من الذين بنوا نظرياتهم حول معالجة ابتعاد العبارات والنظريات الفلسفية عن اللغة العادية، وذهبوا إلى تبني مبدأ قائم على أن أي نظرية أو عبارة فلسفية بعيدة عن اللغة العادية المستعملة في التواصل اليومي تعد نظرية خاطئة لا يجوز الركون إليها، وهو افتراض خطير جدا، وغير مسلم به اتفاقا، ونقصد بالمسلمين بهذا الرأي (فجستاين) الذي تبنى هذا الرأي في كتاباته الأخيرة، ورأى بأن أي نظرية تبتعد عن اللغة العادية المتداولة فقد حادت عن الحقيقة، في حين رفض (راسل) ما رآه (فجستاين) ورأى بأن اللغة العادية مليئة بالخلط واللبس والاشتراك اللفظي والمعنوي، وليست مثالية لتبنى عليها النظريات[١] ويغور هذا البحث بعيدا للحديث في الفلسفة اللغوية للتواصل اليومي بين المتكلمين، وتحليل أسباب ضعفه، ونحن ننظر إلى التواصل باعتباره عملية نقل كبرى تم من خلال تضافر علوم مختلفة، ففي حدود التواصل ينظر اللساني إلى اللغة، وعالم النفس الى الذات المتحدثة، وعالم الاجتماع الى الجماعة الناطقة والمنطقي الى المرجع، فإننا نرى التواصل أوسع من ذلك فهو شامل لكل تلك الجوانب وأكثر منها، فهو عملية نقل معلومة أو خطاب من باث إلى متلق، الغاية منها تبليغ معلومة أو رسالة معينة إلى متلق معين، وتتم بواسطة قناة اتصال معينة. وهي عملية بسيطة، لكنها تحمل مركبات ومفارقات واختلافات؛ نظراً لأن الرسالة التي يراد تبليغها ليست على الدوام واضحة ودقيقة، وتحمل المعنى المتفق عليه أو المراد تبليغه، إذ تميل جميع الرسائل باتجاه التعدد والاختلاف والتنوع، و بالرغم من أهمية مستوى المتلقي فإنه لا يسجل على الدوام معطى الرسائل بشكل سلبي، بل يحاول الفهم وإصباغ الرسالة بدلالة معينة. كما أن قناة الاتصال تقوم بدور مؤثر في محتوى الرسالة ومضمونها، وذلك تبعاً لكونها وسيلة سمعية أم بصرية[٢] فإن كثيرا من قضايا فشل التواصل أو ضعف الفهم لا يعود سببها إلى فشل في صياغة القواعد اللغوية (الصرفية والتركيبية...) فحسب، بل بسبب فشل المتلقي في فهم قصدية المتكلم. ونتحدث هنا عن الفشل التداولي الذي أهمل في أغلب نظريات التحليل اللغوي، ولم ينتبه إليه علماء اللغة كثيرا، مع أن مصداقه كثير في تراثنا اللغوي وواقعنا المحكي.

ونحن هنا لا نحمل المخاطب وحده سبب فشل التواصل، على الرغم من دوره الكبير في نجاح عملية التواصل، فهو مدار القول عند اللغويين العرب، ومثل بؤرة النظرية التواصلية عندهم، فيدور الكلام ما دارت حالته ووضعه في المجتمع، و إفهامه غاية المتكلم، ولا يوصف الكلام بالبيان إلا إذا كان مُفهِما، قال الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) في ذلك :" لأن مدار الأمر على البيان والتبيين، وعلى الإفهام والتفهيم، وكلما كان اللسان أبين كان أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد والمفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل، إلا أن المفهم أفضل من المتفهم وكذلك المعلم والمتعلم"[٣] ورأى أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) أن نقسم الكلام على وضع المخاطب الثقافي والمعرفي، قال:" وإذا كان موضع الكلام على الإفهام فالواجب أن تقسّم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطب السّوقي بكلام السّوقة، والبدويّ بكلام البدو، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه، فتذهب فائدة الكلام، وتعدم منفعة الخطاب"[٤] أما المتكلم فقد كان حضوره طاغيا في التفكير النحوي وفي النظرية اللسانية العربية، قال الزملكاني (ت٦٥١هـ) واصفا دوره في الخطاب وصفا دقيقا: "وحال أنفس الكلم مع المؤلف حال الإبرسيم مع ناسج الديباج، والذهب من الصائغ، وليس قائل الشعر قائلا له من حيث نطق بالكلم، ولكن من حيث ألف وصنع المعاني ما صنع، ولو كان قائلا له لقيل لحاكي الشعر: أنه شاعر وأنه قائل لما حكاه..."[٥] وتقترب النظرية التداولية كثيرا من فهم العرب لدور طرفي الخطاب في إنجاح فعل التواصل، فرأى (ليتش) بأنه لا يمكن أن ندعي فهمنا للكلام من دون استحضار شروط إنتاجه المحيطة به خاصة عنصري (المتكلم والمخاطب) اللذين اعتبرهما ركنين لا غنى عنهما، ومظهرين مهمين في الحالات التكلمية[٦].

وانطلاقا من مبدأ أن الغاية في عملية التواصل نجاحها، ومن ثم الفائدة لدى المتلقي، فثمة سلوك عكسي يؤدي نتيجة عكسية وهو الفشل التواصلي، حينما يفشل طرفا الخطاب من تحقيق هذه الغاية، وللفشل التواصلي (التداولي) طرق وأسباب وكثيرة، سنقوم في هذا البحث بمحاولة استكشافية لسبر أغوارها، وانطلقنا من تحليل أفكار الباحثة في اللسانيات (جيني توماس) حول الفشل التداولي، ومن ثم الاستفادة منها في واقعنا اللغوي العربي، عبر بعض التطبيقات المهمة فقسمنا البحث على المحاور الآتية:

أولا: دور السياق الثقافي والأبستمولوجي في حصول الفشل التداولي.

ثانيا: أثر فهم القوة التداولية في تفسير حالات الفشل التداولي.

ثالثا: الفرق بين الفشل التداولي والخطأ التداولي في فكر (جيني توماس).

رابعا: أهم المصطلحات القريبة من الفشل التداولي، كالاستعجال النطقي، والانتهاك لمبادئ الحوار.

خامسا: الاحتراز من الفشل التداولي عبر توخي المتكلم مبادئ التداولية وإحكام استعمال أفعال الكلام، وكذا تدريس التداولية في مدارسنا.

أولا: دور السياق الثقافي والأبستمولوجي في حصول الفشل التداولي.

لاتحاد السياق الثقافي والمعرفي دور كبير في نجاح الفعل التواصل، وانطلق اللسانيون في بيان دور السياق الثقافي من خلال تقدير الكفاية التواصلية لدى المتكلم، فقد ميز اللسانيون بين نوعين من الكفايات: لغوية وتخاطبية، والكفاية التخاطبية: هي المقدرة على استعمال اللغة في سياقاتها الفعلية التي تتجلى فيها، وتختلف عن الكفاية اللغوية التي نعني بها المعرفة المتطلبة لتركيب الجمل اللغوية الصحيحة الصياغة، وتمثل الكفاية التخاطبية: المعرفة المتطلبة لما تعنيه الجمل عندما يتكلم بها في سياق معين، وهنا يتحول المخاطب إلى مفسر للكلام، وهي معرفة تنتقل بالمخاطب إلى درجة يكون فيها منتجا مضافا للنص(٧). فموقعها ساحة الخطاب، ومعارف المتكلم. والكفاية التخاطبية بديل مفهومي منهجي للكفاية اللغوية عند (تشومسكي) فإذا كان (تشومسكي) يرى بأن الكفاية اللغوية قاعدة الاتصال اللغوي بين الناس، فقد ذهب (هايمز) إلى أن الكفاية الاتصالية (التخاطبية) هي المعيار لنجاح الفعل الاتصالي، ويعرفها (بينتنج) بأنها القدرة الانسانية الشاملة على فهم الموقف الاتصالي بين أطراف الاتصال في إطار عوامل أخرى، كالزمان والمكان والعلاقات الاجتماعية، والعلاقات الخاصة بين أطراف الاتصال (أي الأدوار والأدوار المتوقعة) ومقاصد هذه الأطراف، والقدرة على الفعل وأداة الاتصال الموظفة لبلوغ الأهداف (الاستراتيجيات البلاغية)، ويعرف (ديتمار) الكفاية الاتصالية بأنها قدرة الأفراد على أن يتصل أحدهم بالآخر في ظروف محددة موقفيا ومعياريا: لغوية ونفسية واجتماعية وتداولية، ويعرفها (سالزمان) بأنها المعرفة بما يكون مناسبا أو غير مناسب لما يقال في سياق ثقافي اجتماعي بعينه(٨).

وترى جيني توماس بأن اختلاف الثقافات سبب مهم في ضعف التواصل أو فشله وتحدد السبب الأساس في ذلك في صعوبة التواصل مع الأجانب الوافدين، وتناقش رأي (هاردر) الذي وضح الدور الخاطئ، الذي يعطى للأجنبي قائلا: بما أن الناس (من خلال تحدثهم مع الأجانب) لديهم خبرات متباينة ، فأنهم يقومون بتعديل سلوكهم وتفسيرهم لمساهمة الأجنبي وفقا لآلية نفسية معروفة[٩] بحيث حتى وإن نجحت في إيجاد الكلمات لتصريحاتك الذكية فيحبذ أن تسمع بشكل عشوائي كنوع من التأدب، إذ إن الأجنبي غير مسموح له بأن يذهب ما وراء مجموعة محددة من المفاهيم: على سبيل المثال إذا بدأ يُقسم بلغة طليقة فأنه من المرجح أن يحقق التأثير التواصلي المألوف (أي إنه قد حدد اعتراضاته الحقيقية حول الوضع المذكور). فترى بأننا يجب ألا نذهب بعيدا مع الأجانب في التواصل، ونلتزم بحدود اللغة الأولية، ونبتعد عن المجازات التي قد تكون مفهومة لدى الناطق الأصلي للغة، ومبهمة لدى المتعلم أو الوافد فممكن للفشل التداولي أن يكون أداة هدم بين الثقافات[١٠]، فمثلا: يجوز للعربي عندما يضيف ضيفا معينا أن يلح عليه في تناول الطعام حتى لو وصل ذلك الالحاح إلى مرات عدة، فكلما كثر ذلك الالحاح كانت قيمته إيجابية، إذ يعد ملمحا من ملامح اتسام المضيف بالكرم الذي يعد بدوره من الخصال العربية الأصيلة والمحببة، التي يحب العربي أن يتصف بها، ومهما زاد الشخص من محاولات إقناع ضيفه بتناول الطعام، فلا يعد ذلك انتهاكا لمبادئ الحوار ولكن ذلك الأمر لا ينجح مع الأجانب، ففي الثقافة الانكليزية مثلا تعد المحاولة الثالثة لإقناع الضيف بتناول الطعام تدخلا في خصوصياته وبزيادة المحاولات يدخل الضيف في مجال انتهاك مبادئ الحوار، فالشخص الإنكليزي يود أن لا تفرض عليه اختياراته، وأن يكون حرا في تطبيق قناعاته.

وقريب من ذلك تفاوت عبارات القبول التي عرضتها (جيني توماس) بين اللغات، وهو أمر ينطبق على العربية، فكلمة (Конечно же) في اللغة الروسية تعني(بالطبع) وعادة ما تستعمل بدلا من كلمة (da) التي تعني (نعم) للتعبير عن القبول بالإيجاب (بدلا من: نعم ، في الواقع نعم ، نعم بالتأكيد/ في اللغة العربية). أما في الانكليزية فإن كلمة "Of course " يمكن أن تعبر عن الطريقة التالية:

- Will you go to the part؟ (هل سوف تذهب إلى الحفلة).
- Of course (وهذا يعني نعم في الواقع أن هذا بديهي/ سوف لن أفوتها).

ومع ذلك ، فعادة ما تعني "بالطبع" أن المتكلم قد سأل عن شيء بديهي ولذلك فأن (Конечно же) تنتقل من الروسية إلى الإنجليزية كإجابة لسؤال "حقيقي" الذي يعني في أفضل الحالات أمرا وفي أسوء الحالات إهانة:

- هل هو مطعم جيد؟.
- بالطبع (بالنسبة للمتكلم الروسي: نعم إنه كذلك) (بالنسبة للمستمع الإنجليزي: أي سؤال غبي هذا، وبالنسبة للعربي أكيد، دلالة على جهل المتكلم بالمعلومة التي من الممكن أن تكون معروفة).
- هل يفتح المحل يوم الأحد ؟.
- بالطبع (بالنسبة للمتكلم الروسي: نعم إنه كذلك) (بالنسبة للمستمع الإنجليزي: فقط الغريب الاحمق سيسأل هكذا سؤال).

وكذلك فإن عبارات(must, ought, should, have to) بالإنكليزية تستعمل جميعها في سياقات مختلفة بمعنى (يجب) ، أما في اللغة الروسية فمن دون أي سبب واضح للغاية ، يفضل المتكلمون الروس استعمال (to be to) وهو تعميم مفرط مؤسف- على حد تعبير توماس- كون استعمال (to be to) وتعني (أن يكون لـــ) وهو تعبير مقيد جدا تداوليا إلى علاقة غير متكافئة أبدا بالقوة مثل الأوامر العسكرية[١١] ، والتوجيهات من الأبوين إلى طفل صغير، وكذلك في العربية، فإن عبارات مثل (نعم، بالطبع، نعم أكيد، لا شك في ذلك، حتما، ألخ) كلها عبارات تستعمل في سياقات مختلفة.

ويعد فشل الخطاب الإعلامي من أنواع الفشل التداولي، الذي يسببه اختلاف الثقافات وهو ناتج عما يسمى بالمحظورات الثقافية، فمثلا لو حدث في واقعنا العربي المعاصر زفاف ملكي، فلا يمكن لنا أن نتوقع اهتماما إعلاميا بـــ(ليلة الدخلة) أو بتفاصيلها، لكن نلاحظ بالضجة التي صاحبت الزفاف الملكي الذي حصل سنة (١٩٨٣) بين الاميرة (ديانا) والامير (تشالز) إذ كان من الملاحظ أن التفاصيل الوحيدة التي نشرتها الصحافة البريطانية لنا كانت الوقت، والمكان والأسلوب الفعلي للدخلة ، ولم تكن مسألة دقيقة وإلا لكانت اللغة المستعملة -التي هي بحد ذاتها قرار تداولي- من الممكن أن تكون محرجة ومثيرة للاشمئزاز (أي سيكون هنالك سوء احتساب تداولي- اجتماعي- بنسب عالية) عند الإشارة إليه على الاطلاق. وعلى العكس من ذلك في

بعض الثقافات الأخر، إذ إن مراسيم فض غشاء البكارة الملكية يعد موضوعا مشروعا للتعليق العام مع الأخذ بنظر الاعتبار أن تلك التعليقات تتم بشكل مناسب ومبجل ومراع وبنغمة صوتية مناسبة تداوليا(١٢).

ثانيا: أثر فهم القوة التداولية في تفسير حالات الفشل التداولي.

يعد اخفاق المتلقي في فهم القوة التداولية من أهم أسباب الفشل التداولي، ومن الممكن أن نقسم ذلك الإخفاق على قسمين: قسم يحدث بين الناطقين للغة الواحدة أنفسهم، ولكن بدرجات بحسب اختلاف ملكاتهم، وقسم بين المتحدثين الوافدين باللغة الثانية:

النوع الأول: عندما يفشل الناطقون في فهم القوة التداولية للفظ بين المتكلمين، فإن ذلك مجالا رحبا لحصول الفشل التداولي، كما في الحكاية الموروثة (شن وطبقة)، فيحكى في الموروث العربي: أن شنا وجد رجلا على قارعة الطريق فأراد شن أن يبدأ الحديث مع صاحبه: فقَالَ له شَنٌّ: أتحْمِلُنِي أم أحْمِلُكَ؟ فَقَالَ له الرجل: يا جاهل أنا راكب وأنت راكب، فكيف أحملك أو تحملني؟ فسكتَ عنه شَنٌّ، وسارا حتى إذا قَرُبا من القرية إذا بزَرع قد استَحْصَد، فَقَالَ شَنٌّ: أترى هذا الزرع أكِلَ أم لاَ؟ فَقَالَ له الرجل: يا جاهل ترى نَبْتاً مُسْتَحْصِداً فتقول أكِلَ أم لاَ؟ فسكَتَ عنه شن حتى إذا دخلاَ القرية لَقِيَتْهما جِنَازة فَقَالَ شن: أترى صاحبَ هذا النّعْشِ حياً أو ميتاً؟ فَقَالَ له الرجل: ما رأيتُ أجْهَلَ منك، ترى جِنَازة تسأل عنها أمَيْتٌ صاحبُها أم حي؟ فسكت عنه شَن، وأراد مُفارقته، فأبى الرجل أن يتركه حتى يصير به إلى منزله فمضى معه، فكان للرجل بنت يُقَال لها طَبقة فلما دخل عليها أبوها سألته عن ضَيفه، فأخبرها بمرافقته إياه، وشكا إليها جَهْلَه، وحدثها بحديثه، فَقَالَت: يا أبت، ما هذا بجاهل، أما قوله: "أتحملني أم أحملك" فأراد أتحدثُني أم أحَدِّثك حتى نقطع طريقنا وأما قوله: "أترى هذا الزرع أكِلَ أم لاَ" فأراد هَلْ باعه أهله فأكلوا ثمنه أم لاَ، وأما قوله في الجنازة فأراد هل ترك عَقِباً يَحْيا بهم ذكرهُ أم لاَ، فخرج الرجل فَقَعد مع شَنٍّ فحادثه ساعة، ثم قَالَ أتحبُّ أن أفسِّرَ لك ما سألتني عنه؟ قَالَ: نعم فَسَّرَهُ، ففَسَّرْهُ، قَالَ شن: ما هذا من كلامك فأخبرني عن صاحبه، قَالَ: ابنة لي، فَخَطَبها إليه، فزوَّجه إياها، وحملها إلى أهله، فلما رأَوْها قَالَوا: وافَقَ شَنٌّ طَبَقَةَ، فذهبت مثلاً(١٣). نلحظ أن الفشل الذي حصل بين شن وصاحبه ناتج من عد قدرة الرجل على فهم القوة التداولية للألفاظ التي تكلم بها شن.

ومنه المحادثة الآتية مثالا على الفشل في فهم القوة التداولية المقصودة من لفظ المتكلم:

- زيد: عجباً ، هل هذه القهوة محلّاة؟.
- عمرو: لا أظن ذلك، هل طعمها يوحي بذلك؟.

في هذه الحالة، فسر عمرو ألفاظ زيد على أنها طلب لمعلومات، بدلا من التذمر الذي كان يقصده زيد (كالعادة، نسيت أن تضع السكر فيها)، فالتأثير المنشود الذي ينشده زيد هو الحصول على اعتذار وعرض بجلب السكر.

وقد يكون ذلك الفشل ناتجا عن جهل السنن من قبل المتلقي: قيل إن عيسى بن عمر النحوي (ت ١٤٩هـ) وقع، فاجتمع الناس حوله، فقال لهم: مالكم تكأكأتم عليَّ تكأكؤكم على ذي جنة؟ افرنقعوا عني، فقالوا دعوه فإن شيطانه يتكلم بالهندية[١٤].

النوع الثاني: سوء الفهم الحاصل من فهم القوة التداولية للألفاظ نتيجة اختلاف فهم الوافدين لمعاني الألفاظ، وخير ما نستدل به على ذلك الحكاية التي تقول: إنّ رجلا وفد من شمال الجزيرة على أحد أمراء الجنوب، وكان هذا على قمة جبل، فقال الأمير للرجل (ثِبْ) فرمى هذا نفسه من أعلى الجبل فمات لساعته! لأنّه فهم أن الأمير يطلب منه أن يرمي بنفسه من أعلى الجبل، بينما كان الأمير يقصد (اجلس). فعندما سأل الأمير عن السبب، قيل له بأن الوثب في الحميرية يعني القفز[١٥].

ومنه الإدفاء: وهو القتل في لغة بعض العرب، وفي الحديث: أنه أتي بأسير يرعد، فقال لقوم: اذهبوا به فادفوه، فذهبوا به فقتلوه، فوداه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأراد الآمر الإدفاء، من الدفء وأن يدفأ بثوب، فحسبوه بمعنى القتل في لغة أهل اليمن[١٦].

ومنه (الترجية) في اللهجة الليبية معناها عجيزة الفتاة وفي العراق تعني الحلق، فقيل إن أستاذا عراقيا نادى طالبة ليبية (أم الترجية البيضاء) ويقصد الحلق فلم يفهموا قصده، ونقل من الجامعة على إثر ذلك، ولم يبرأ من ذلك حتى جيء بأستاذ عراقي أوضح معنى اللفظ. فسوء الفهم الحاصل في القوة التداولية للألفاظ لم يحصل نتيجة سوء الفهم السنن بل نتيجة اختلاف دلالة اللفظة الواحدة في البيئتين المختلفتين.

ثالثا: الفرق بين الفشل التداولي والخطأ التداولي في فكر (جيني توماس).

الخطأ التداولي مرتبط بالفشل النحوي، الذي يكون عادة محكوما بضوابط صارمة قطعية، بينما الفشل التداولي لا تكون ضوابطه صارمة، بل محكومة بتغيرات السياق وثقافة المتكلمين،

فليس من الممكن أن نقول: إن القوة التداولية للفظ معين على أنها "خطأ" وإنما كل ما يمكننا قوله إننا فشلنا بتحقيق هدف المتكلم[١٧] فإذا كان الهدف من الفعل الكلامي هو تحقيق إنجاز معين لدى المتكلم، ومن ثم التأثير فيه، ومن الممكن تبنيه المتلقي فكرة المتكلم إذا كانت حجاجيته عالية، ولكنه إذا أخفق في هدفه، فلا نستطيع أن ندعو إخفاقه خطأ، بل فشل في تحقيق الأهداف، بينما نرى بأن الأخطاء النحوية التي تكون مزعجة ومعيقة لعملية التواصل، ولكنها على الأقل كقواعد يكن واضحات من البنية الظاهرية للتركيب اللغوي، وبذلك فأن المتلقي يكون مدركا أن هنالك خطأ قد وقع ، وبمجرد أن يتنبه الناطق باللغة إلى الخطأ يتوصل إلى حقيقة أن المتكلم ليس لدية القدرة النحوية الكاملة لصياغة التراكيب ،ولكن الفشل التداولي من جهة أخرى، نادرا ما يتم تمييزه من قبل غير المختصين في اللغة أو الناطقين الاصليين للغة، فإذا ظهر أن متكلما أجنبيا يتحدث بطلاقة (أي إن لديه القدرة النحوية) فإن الناطق باللغة يُرجح أن يعزو عدم الأدب أو التهجم الظاهري ليس إلى خلل لغوي وإنما إلى بغض أو سوء النية ، ففي الوقت الذي يظهر فيه الخطأ النحوي أن المتكلم لا يستعمل اللغة بإتقان ، فإن الفشل التداولي ينعكس بصورة سيئة عليه كشخص اجتماعيا[١٨].

ونسوق مثالا على ذلك المتكلم الذي يستعمل عبارات التأدب العالية في المطعم أو المقهى، وتعد تلك العبارات ناجحة في تلك السياقات، ولكن العبارات نفسها ممكن أن تتحول إلى عبارات ساخرة لو استعملها مع زوجته، ويمكن لنا أن نعذر المتكلم الأجنبي إذا أخطأ في صياغة التراكيب النحوية في كلامه ونقدر له جهله في اللغة، ولكنه لو أخطأ في تقدير لفظ في سياق مختلف من الممكن أن لا يحسن الظن به.

فمثلا تنفرد اللغة العربية عن الكورية بأصوات: الهمزة الحنجرية، والحاء والعين، والقاف والغين والزاي والصاد والطاء والثاء والذال...الخ وقد لوحظ أن المتكلم الكوري يخطأ في نطق تلك الأصوات، إذ يقوم بإبدال تلك الأصوات بأصوات من لغتهم فيبدلون الصاد سينا

والخاء كافا والراء لاما، في كلمة صخر فينطقونها (بسكل) نطقا وكتابة[١٩]، وفي هذا السياق لا يمكن لنا أن نعد ذلك فشلا تداوليا بل خطأ نحوي. وكذلك الأخطاء في التذكير والتأنيث، فمثلا كلمات (السيارة، الحديقة، الإذاعة) مؤنثة في العربية، بينما مذكرة في الألمانية[٢٠]، فلا يمكن لنا إلا أن نحسن الظن في تذكير الناطق الألماني لهذه الألفاظ في البلاد العربية.

رابعا: أهم المصطلحات القريبة من الفشل التداولي، كالاستعجال النطقي، والانتهاك لمبادئ الحوار.

تفرق (جيني توماس) بين الفشل التداولي ومصطلحات قريبة منه كالعجالة، ونقصد بها زلة اللسان، التي تمثل بدورها هفوة مؤقتة لشخص متواصل تداولياً بشكل طبيعي ، وتتجلى في كثير من الأحيان في عدم التوفيق في التنغيم الصوتي على سبيل المثال عندما يكون القصد من وراء لفظ على أنه طلب ولكنه ينطق على شكل أمر ، وعادة كما هو الحال في زلة اللسان[٢١].

وللتنغيم دور واضح في تحديد معنى المفردات والتراكيب، والخلط في استعماله يؤدي تغييرا كبيرا في معنى المفردات والتراكيب، وهو مبحث كبير اهتمه به التداوليون كثيرا، فهم يرون بأن لا يجوز لنا أن نفتش عن معنى الكلمة شكليا، وإنّما عن الأسلوب الذي قيلت فيه، فهو قرينة مهمة وواضحة في تعيين معاني المفردات والتراكيب، ومن خلالها تفهم المعاني سواء أكانت إخبارا أم استفهاما أم أمرا أم تعجبا...ألخ.

وقد حفلت كتب القراءات والنحو بأمثلة عديدة عن اختلاف التنغيم في تعيين معنى الجملة، ومنه الشاهد النحوي المعروف:

حتّـــى إذا جـــنّ الظّـــلام واختـــلط جاؤوا بمـــذق هـــل رأيـــت الـــذئب قـــط؟

فجملة: هل رأيت الذئب قط خبرية وليست استفهامية؛ لأنها تعني جاءوا بمذق لونه لون الذئب، والدليل على ذلك أن التنغيم في نطق الاستفهام في البيت لم يكن دالا على تنغيم استفهام بل تنغيم إخبار.

وممّا حذف فيه حرف الاستفهام مستعاضاً عنه بالتنغيم الخاصّ بهذا المعنى، قول الحضرمي ابن عامر الأسديّ ردّاً على من عيّره بفرحه لموت أخيه وميراثه إيّاه:

أفـــــــرح أن أرزأ الكـــــــرام وأن أورث ذوداً شصائصـــــــاً نـــــــبلا

ويمكن أن تكون جملة أفرح أن أرزأ الكرام.. استفهامية، وليس فيها أداة استفهام، وإنّما طريقة نطقها بصورة تناسب الأنماط التنغيّمة للجمل الاستفهامية يدلّ على أنّها استفهاميّة ــ أي أأفرح أن أرزأ الكرم...؟[٢٢]. وقد عقد ابن مالك (ت٦٧٢هـ) بابا من أبواب كتاب شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح لأثر التنغيم في بيان حقيقة دلالة التركيب، قال:" وقد كثر حذف الهمزة إذا كان معنى ما حذفت منه لا يستقيم إلا بتقديرها، كقوله تعالى" وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ " (الشعراء ٢٢) قال أبو الفتح وغيره (أراد أو تلك نعمة)" [٢٣].

أما بالنسبة للغة الإنكليزية، ففيما يخص نطاق النفي فإن للتنغيم الصوتي تأثيرا كبيرا على المعنى التداولي للجملة المنفية، أو بعبارة أدق ما يعرف بتركيز النفي ففي جملة مثل:

I didn't leave HOME, because I was Afraid of my Father

التي تحتوي على تركيز للنفي على كلمة (HOME) فإنها تحمل معنى: أنني لم أغادر البيت لأنني كنت خائفا من والدي، أما إذا لم يكن هنالك تركيز للنفي على عناصر الجملة كما فيما يلي:

I didn't leave home , because I was Afraid of my Father

فإنها تحمل معنى: أن مغادرتي للبيت لم تكن بسبب خوفي من والدي[٢٤]؛ ولهذا يمكن أن تكون نسبة كبيرة من القوة التداولية لهذه العبارة مرتبطة جدا بإتقان المتكلم وملاحظة المخاطب للتنوع الصوتي عند نطق هكذا جمل؛ ليتسنى للطرفين تحقيق نجاح تواصلي وتداولي.

أما مشكلة زلات اللسان فهي سبب واضح وصريح من أسباب الفشل، ولكن لا يمكن أن نعده فشلا تداوليا، ففي ضوء الدراسات التي قام بها فرويد على بعض الظواهر الكلامية، كان التركيز واضحاً على "زلات اللسان" باعتبارها موضعا قصديا كامنا يجري تجاهله دوماً، رغم أنه يكشف عن دلالات قصدية عميقة، قد لا يمكن الحصول عليها في حالات الكلام الواعية[٢٥].

وقد نختلف مع (جيني توماس) في عدها الانتهاك لمبادئ الحوار ليس سببا من أسباب الفشل التداولي، فترى توماس بأن "الانتهاك" ربما يتطلب تفصيلا أكثر قبل استبعاده من الفشل التداولي؛ لأن المبادئ التداولية قواعد معيارية وليست إلزامية[٢٦]. ونرى بأن القواعد التداولية إلزامية وليست معيارية، ففي الوقت الذي يضع فيه الخطأ النحوي الشخص خارج النظام النحوي للغة ، إلا إن المتكلم – كما أشار (ليتش)– يمكن أن ينتهك المبادئ التداولية ومع ذلك يبقى ضمن

النظام التداولي لتلك اللغة **(وهنا نختلف معها)**. وتستطرد قائلة: "بعبارة أخرى: يمكن أن تكون غير مؤدب ، وغير صادق ، وغير مفيد للغاية وفي الوقت ذاته " تتكلم الإنجليزية بشكل تام"[٢٧] **وهنا نظنها دمجت الفشل اللغوي بالتداولي،** فقد يستطيع الفرد التحدث بأي لغة، دون أن يفشل لغويا، ولكن هذا لا يعني بالضرورة نجاحه تداوليا، وترى (جيني توماس) بأن انتهاك مبادئ الحوار ليس فشلا تداوليا، والمبادئ الحوارية ليست إلزامية، ونرى بأنها إلزامية، لنجاح الفعل التواصلي، فممكن لأي حديث أن يكون ناجحا لغويا وفاشلا تداوليا، فمن الممكن أن تنجح في إبلاغ زميلك في العمل بأي فكرة أو معلومة، وتكون عملية التوصيل ناجحة، وتتم عملية التبليغ، لكن قد لا تكون نجحت تداوليا؛ لأن الفعل التداولي يتعدى التبليغ والتوصيل إلى الإنجاز والتأثير في نفس المتلقي؛ للاقتناع بالفكرة ومن ثم قبولها ومن ثم تبنيها، وهذا هو النجاح التداولي ومن الممكن أن يقصد المتكلم بعض المعاني الاستلزامية التي تكون متضمنة في حديثه، ولظروف تتعلق بوعي المخاطب لا يفهم تلك المعاني ويفهم التراكيب على معانيها الظاهرية؛ لذلك اشترط التداوليون الالتزام بمبادئ الحوار سبيلا إلى نجاح التواصل، ويرى (غرايس) أن كل عملية تحاور بين طرفين تحتكم إلى مجموعة من القوانين و القواعد والمبادئ العامة، التي يحتكم إليها طرفا الخطاب، وتكون هذه القوانين محترمة من قبل طرفي الخطاب، وتحدد تلك القوانين ما يجب أن يفعله المساهمون في الحدث اللغوي بأقصى طريق تعاوني عقلي كاف، وأي خرق لتلك القوانين يؤدي إلى اختلال المعنى، وحدد (غرايس) هذا المبدأ، وأطلق عليه مبدأ التعاون (cooperative principale) الذي تتفرع عنه مجموعة من القواعد أو مقولات، وهي كالآتي: (الكيف والكم والجهة والطريقة)[٢٨]. وزاد التداوليون مبادئ أخرى كالمناسبة والتصديق والتأدب والتأدب الأقصى، وهي مبادئ عامة تضبط حوار المتكلمين، ونرى تلك المبادئ واضحة في تراثنا الاسلامي، فمنه قوله تعالى: " ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" (النحل ١٢٥) وقوله تعالى:" فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ" (ال عمران ١٥٩) فتلك مبادئ واضحة ضابطة للحوار، ومنه ما أورده الماوردي(ت٤٥٠ هـ)[٢٩] في شروط الكلام :

أ. ينبغي أن يكون الكلام لداع يدعو إليه، إما في اجتلاب نفع أو لدفع ضرر.

ب. ينبغي أن يأتي به المتكلم في موضعه ويتوخى إصابة فرصته.

ت. ينبغي أن يقتصر الكلام على حاجته.

ث. يجب أن يتخير اللفظ الذي به يتكلم

تلك مبادئ عامة تجعل من الانتهاك لمبادئ الحوار سببا كبيرا من أسباب الفشل التداولي.

وهنا يجب أن نفرق بين الخرق المقصود لمبادئ الحوار، عندما يخرق المتكلم تلك المبادئ قاصدا إحداث دلالة استلزامية أخرى. فالهدف من مبدأ التعاون وضع أسس وقوانين منضبطة للحوار، محترمة من طرفي التواصل، حتى وإن لم يشعرا بها أو يعرفاها، فهي معروفة ومركوزة في سليقة المتكلمين، يفترض المتخاطبون على بعضهم الاحترام المتبادل لهذه القواعد، بما يسمح للمتقبل أن ينشئ الدلالة المناسبة، وبعكسه فعلى المخاطب أن ينحرف عن الدلالة الحرفية، ويتجاوزها، ويبحث عن دلالة استلزامية غير مباشرة، يجدها في مظان القول، وهذا يفسر سبب الفشل في أي حوار لا يحترم تلك القواعد، فلو سأل سائل: من فاز بجائزة نوبل في اللسانيات العربية؟ وكان الجواب: وهل توجد لسانيات عربية؟ فالملاحظ أن الإجابة تعتبر إجابة فاشلة؛ لأنها خالفت مبدأ الكم والورود، لكن يبدو أن المجيب أراد تعاونا من شكل آخر؛ لأنه خلق مجالا دلاليا آخر، وهذا ما يؤدي إلى خلق افتراض نقيض للمؤشرات السطحية(٣٠)، مفاده تأخر الدراسات اللسانية في الوطن العربي، ومن ثم عدم ارتقائها لمرتبة تخصص لها جائزة في التصنيف والبحث. وهذا الخرق محمود في الخطاب بصورة عامة، ولكننا نتحدث عن الخرق لمبادئ الحوار عندما يكون المتكلم جاهلا لتلك المبادئ، أو متكبرا على احترامها أو وغدا جلفا غير مهتم بتلك المبادئ الضابطة لحياة الناس، فحينئذ نأمن التوصيل لكننا لا نأمن التواصل.

سادسا: الاحتراز من الفشل التداولي: نقترح بعض الإجراءات والأفكار سبيلا للاحتراز من الفشل التداولي:

١. تدريس التداولية في مدارسنا:

تقترح (جيني توماس) هنا فكرة ممكن أن تفيد مدرسي اللغة الانكليزية (تتحدث عن الواقع الانكليزي) وترى بأن مهمة المعلم يجب ألا تقتصر على تدريس قوعد النحو والصرف بل تعليم الطالب الناطق بلغة غير لغته أن يكون متأدبا، وأن لا يتصرف بوقاحة وأن يفهم المعلم الطالب تبعات التصرف بوقاحة، وترى بأن الوصف التداولي لم يصل بعد إلى مستوى الدقة التي

وصل إليها النحو في وصف الملكة اللغوية ، فيجب التعامل معه وفق هذه الخصوصية، وكذا فإن التداولية –اللغة في الاستعمال– جزء حساس من اللغة وليس من الواضح على الفور كيف يمكن لها ان تُدرّس، ثم اقترحت وفق هاتين المشكلتين التركيز على تدريس **(التداولية الملائمة)** على الرغم من أنها ترحب بحقيقية أن كتب القواعد النحوية التربوية مثل كتاب "النحو التواصلي للغة الإنجليزية" قد بدأن بالامتداد إلى التداولية ومعالجة مسائل الاستعمال كما هو الحال لمشاكل التركيب الصحيح، إلا أنها تعتقد أن الأحكام حول الملائمة لا يمكن لها أن تدرج بشكل واف وكاف فيكتب النحو أو الكتب المنهجية بشكل مخالف للقواعد الأولية نسبياً[٣١].

وهنا ينبغي أن نشير إلى بعض الأمور الخاصة بتعليم النحو في البلدان العربية، فليس من الواضح استثمار ما يتعلمه الطالب من قواعد النحو في حياته اليومية، فالطالب يتعلم أصول النحو وقواعده الدقيقة في مدارسنا وجامعاتنا، ولكن تلك الأصول تكون بعيدة عن واقعه المعيش فلا يكاد يحتاجها إلا لأجل اجتياز الامتحان والحصول على الدرجة، ولكنه في حياته اليومية ومعاملاته مع أهله وأصدقائه في البيت والشارع والمقهى والملعب يتحدث بلغة عامية بعيدة عما أخذه في حجرات الدرس، وهنا تظهر لدينا مشكلة عامة وهي مشكلة الدراسات الانسانية والاجتماعية، وابتعادها عن حياة الناس، وتصدر العلوم الصرفة مضمار الاهتمام الدولي، على الرغم من أهمية العلوم الإنسانية في تشكيل هوية الفرد وتحديد قناعاته وبلورة شخصيته.

لذلك نقترح تدريس النحو التداولي، المبني على قواعد الملائمة ومبادئ الحوار، وهنا نخرج عن دراسة صحة القواعد التركيبية إلى تدريس الطالب صحة التراكيب أو العبارات في السياقات، أو تدريس اللغة في الاستعمال، وهذا من شأنه أن يقرب علوم اللغة إلى الواقع المعيش، ويرجم الهوة بين الدرس النظري الرتيب، والاستعمال البعيد عنه.

وثمة مسألة أخرى نختلف فيها مع (جيني توماس) فهي تعتقد أن الاحكام حول الملائمة لا يمكن لها أن تدرج بشكل واف وكاف فيكتب النحو أو الكتب المنهجية بشكل مخالف للقواعد الأولية نسبياً[٣٢]. وهذا الأمر مخالف للأحكام في العربية، فلا يمكن للأحكام النحوية في العربية أن تكتب وتدرج بشكل مخالف لقواعد الملائمة، وخير دليل على ذلك ما أقره سيبويه (ت١٨٠هـ) في تقسيم الكلام، قال: "فمنه مستقيم حسنٌ، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب، فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتُك أمْسِ وسآتيك غداً، وسآتيك أمس وأما

المستقيم الكذب فقولك: حَمَلتُ الجبلَ، وشربت ماء البحر ونحوه، وأما المستقيم القبيح فأنْ تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيداً رأيت، وكي زيداً يأتيك، وأشباه هذا، وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمسِ"[٣٣]. فنلحظ أن صحة صياغة القواعد النحوية عند سيبويه كانت محكومة بنجاحها سياقيا وملائمتها اجتماعيا، ولا يمكن لنا ونحن ندرس النحو العربي أن ندرسه دراسة شكلية، فلم يكن العلماء القدماء في دراستهم للنحو منصبين على الجانب الشكلي، بل اهتموا أيضا بدراسة المقام الخارجي وملائمة التراكيب لتلك المقامات، وما يحيط بالظاهرة اللغوية من ملابسات تكتنفها، تتصل بالمتكلم والمخاطب أو ظروف الكلام وخاصة في معرض الحديث عن الفهم والافهام[٣٤].

وتطالعنا أمثلة كثيرة يجمع فيها سيبويه بين التفسير اللغوي وملاحظة ملائمة التركيب للمقام، وذلك عندما يرد كثيرا من التراكيب، ويقدر عوضا عنها تبعا للمقام ويستع في تحليله إلى وصف المواقف الاجتماعية التي تستعمل فيها وما يلابس هذا الاستعمال من حال المخاطب[٣٥] ومن ذلك قوله:" وذلك قولك: أتميميا مرة وقيسيا أخرى، وإنما هذا أنك رأيت رجلا في حال تلون وتنقل، فقلت: أتميما مرة وقيسيا أخرى، كأنك قلت: أتحول تميميا مرة وقيسيا أخرى. فأنت في هذه الحال تعمل في تثبيت هذا له، وهو عندك في تلك الحال في تلون وتنقل، وليس يسأله مسترشدا عن أمر هو جاهل به ليفهمه إياه ويخبره عنه، ولكنه وبخه بذلك.

وحدثنا بعض العرب، أن رجلا من بنى أسد قال يوم جبلة واستقبله بعير أعور فتطير " منه "، فقال: يا بنى أسد، أعور وذا ناب! فلم يرد أن يسترشدهم ليخبروه عن عوره وصحته، ولكنه نبههم، كأنه قال: أتستقبلون أعور وذا ناب! فالاستقبال في حال تنبيهه إياهم كان واقعا، كما كان التلون والتنقل عندك ثابتين في الحال الأول، وأراد أن يثبت لهم الأعور ليحذوره"[٣٦] فهكذا يقدر الحذف في ضوء التفسير الدلالي للمقام وسياق الكلام ثم يلاحظ كيف ينصرف الاستفهام الى التوبيخ والتقرير، في ضوء معطيات الموقف الاجتماعي[٣٧].

وبهذا فأن ما اقترحه هو أنه يتوجب على المعلمين أن يطوروا قدرة طلبتهم الفوق تداولية (ميتا براغماتية) أي القدرة على تحليل استعمال اللغة بطريقة واعية- وهي عملية اسماها (شاروود سميث) بمصطلح " رفع الوعي".

٢. توخي المتكلم مبادئ التداولية وإحكام استعمال أفعال الكلام:

وهذا النقطة تتصل بما قبلها، فيجب على المتكلم مراعاة أحكام مبادئ التداولية في حديثه، لما للأهمية الاجتماعية لتلك المبادئ، وسأتحدث عن مبدأ واحد من تلك المبادئ وأثره في الحياة الاجتماعية، وأقصد به مبدأ التأدب الأقصى وواضعه (ليتش) في كتابه (مبادئ التداوليات) الذي يعد مكملا لمبدأ التعاون، وصاغ مبدأه في صورتين:

أ. سلبية، قلل من الكلام غير المؤدب.

ب. إيجابية، أكثر من الكلام المؤدب[٣٨].

يتفق ليتش مع الثقافة العربية، بوصف الذات كلها المحور الذي يجب أن تتوجه نحوه بوصلة الخطاب، وعدم حصرها بالوجه، وفي هذا السياق يقول الجاحظ واضعا المخاطب محورا للكلام: " ومدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم والحمل عليهم على أقدار منازلهم، وأن توأتيه آلاته وتتصرف معه أداته، ويكون في التهمة لنفسه معتدلا وفي حسن الظن بها مقتصدا، فإنه إن تجاوز مقدار الحق في التهمة لنفسه ظلمها فأودعها ذلة المظلومين، وإن تجاوز الحق في مقدار حسن الظن بها أمنها فأودعها تهاون الآمنين، ولكل ذلك مقدار من الشغل ولكل شغل مقدار من الوهن، ولكل وهن مقدار من الجهل"[٣٩]. وينطلق (ليتش) من مبدأ التعاون الذي أقره (غرايس) واصف إياه ودوره في عملية التواصل؛ لأنه الرابط بين قصد المتكلم والمعنى الدلالي لألفاظه، وناقدا له؛ لقصوره عند المستوى التبليغي، ومغفلا أدوار التداول النفسية والاجتماعية؛ لذلك اقترح مبدأ التأدب الأقصى الذي يحاول التوسع في عملية التبليغ بالتأدب ليصل إلى مستوى تكوين الصداقات، والروابط التي يصعب فك عرى اتصالها[٤٠]. وثمة قواعد متفرعة من مبدأ التأدب الأقصى:

أ. قاعدة اللباقة: ولها صورتان: قلل من خسارة الغير، وأكثر من ربح الغير.

ب. قاعدة السخاء: ولها صورتان: قلل من ربح الذات، وأكثر من خسارة الذات.

ت. قاعدة الاستحسان: ولها صورتان: قلل من ذم الغير، وأكثر من مدح الغير.

ث. قاعدة التواضع: ولها صورتان: قلل من مدح الذات، وأكثر من ذم الذات.

ج. قاعدة الاتفاق: ولها صورتان: قلل من اختلاف الذات والغير، وأكثر من اتفاق الذات والغير.

ح. قاعدة التعاطف: ولها صورتان: قلل من تنافر الذات والغير، وأكثر من تعاطف الذات والغير.

نلحظ أن قواعد التأدب الأقصى تروم إلى رفع كل صور التنافر الاجتماعي بين الأفراد، للوصول بعملية التبليغ إلى القيمة الجمالية الصافية، من كل مظهر من مظاهر التعارض الاجتماعي.

ويسوق عبد الهادي الشهري مثالا بصياغات مختلفة.

أ. أعرني سيارتك.

ب. أريد أن تعيرني سيارتك.

ت. هل يمكن أن تعيرني سيارتك؟

ث. لعلك تعيرني سيارتك.

إذ يعبر المتكلم عن قضية واحدة، وهي استعارة السيارة في المخاطب، لكن عباراته تتدرج في لباقتها، ابتداء بالعبارة الأولى الصريحة، التي قد تثير نفور المخاطب، وانتهاء بالعبارة الأكثر لباقة[٤١].

والأمر ذاته ينطبق على اللغة الإنكليزية إذ إن للطلب (request) أنماطا متعددة تتدرج حسب نسبة التأدب تبعا للصياغة اللغوية المستخدمة لإنجاز الوظيفة اللغوية:

1. Can I borrow your pen, please ?
2. Could I borrow your pen, please ?
3. Is it ok if I borrow your pen?
4. Do you mind if I borrow your pen, please ?
5. Would it be all right if I borrowed your pen?
6. Would you mind if I borrowed your pen ?
7. I was wondering if I could borrow your pen

نجد هذه الجمل السبع أنها جميعا تؤدي الوظيفة ذاتها (طلب قلم من المخاطب) ولكن هنالك بعدا تداوليا آخر يظهر من خلال تعديل الأنماط النحوية للطلب نفسه، إذ إن هذه الجمل تختلف من حيث درجة الرسمية (ومن ثم التأدبية) فالجملة الأولى أقل رسمية من الثانية، والثانية

أقل من الثالثة وهكذا[٤٢] ، ومن الملاحظ هنا أن الطلب كلما كان الطلب غير مباشر، كلما أصبح أكثر رسمية وتأدبا؛ لذا فإن تنوع هذه الجمل ليس بأسلوبي فقط، بل يكاد أن يكون تداوليا بالدرجة الأساس.

٣. موقع المتكلم والمخاطب ضمن السياق:

ترى (جيي توماس) أن هناك مشكلة أخرى متعلقة بالتسلسل الهرمي من النوع الذي اقترحه (وولترز) وهي أن الشخص عندما ينتقل من الموقف "الرسمي إلى غير رسمي فانه قد يحتاج إلى أن يعكس "التسلسل التأدبي" لذا فأن لفظا بين زوج وزوجة يبدأ بـــ "أتساءل إن كان بإمكاني أن اطلب.... عادة ما يفهم على أنه ساخر أو عدائي بدلا من أن يكون مهذباً. ولكي ينجح الفعل الإنجازي ، فعلى المتكلم أن يحكم على موقعه نسبة إلى محاوره من خلال تقييم:

أ. الموقع (على سبيل المثال: الأدوار ، المكانة ،الخ).

ب. الخصائص (على سبيل المثال: الجنس ، العمر ،الخ).

ت. العلاقات (على سبيل المثال: الهيمنة ، السلطة ، الخ).

ث. الوظائف (على سبيل المثال: أب، نادلة ، قاضي ، الخ).

ج. يجب على الشخص أن يقيم المسافة الاجتماعية بين المتكلم والمتلقي، والقوة النسبية للمتلقي على المتكلم ، ودرجة تصنيف السياق في تلك الثقافة. فاقترح (ليتش) معايير متطابقة تقريبا لقياس مقدار اللباقة المطلوبة في موقف معين:

- كلما زادت قوة المتلقي على المتكلم.
- وزادت المسافة الاجتماعية بين المتكلم والمتلقي.
- وزادت تكلفة السياق للمتلقي.
- تطلب الأمر المزيد من اللباقة[٤٣].

ومن ثم فإن هذه القواعد التي تضبط الحوار لها الصبغة الاجتماعية، لما للاجتماعيات من حضور واضح وصريح في الدرس التداولي، فاللسانيات الاجتماعية ذات صلة وثيقة بالتداولية، حتى إن هناك فرعا من التداوليات يسمى التداولية الاجتماعية، فالتداوليات تهتم بأشكال التفاعل الاجتماعي والتفاعل الخطابي، ودراسة المعطيات اللغوية والخطابية المتعلقة بالتلفظ، و تُعنى بالعملية التواصلية في كل أبعادها النفسية والاجتماعية والايدلوجية، ودراسة

العلاقة بين اللغة والسياق، ولا يكون الكلام صحيحا تداوليا حتى تتم الملائمة مع السياق الاجتماعي.

نتائج البحث وتوصياته

١. لاختلاف السياق الثقافي والأبستمولوجي دور مهم في حصول الفشل التداولي، فتفاوت الثقافات وعدم انتباه الناطقين لذلك التفاوت سبب أساس في حصول الفشل التداولي.

٢. يجب على المهتمين بالخطاب الاعلامي مراعاة اختلاف السياق الثقافي في بث الخطاب الاعلامي وتحليله.

٣. يجب على الناطقين في لغة ما عدم الذهاب بعيدا في اللغة مع الوافدين، والالتزام بحدود اللغة الأولى، وعدم الذهاب بعيدا في التشبيهات والمجازات.

٤. عدم مراعاة القوة التداولية سبب في حصول الفشل التداولي، سواء في اختلاف ثقافة الناطقين باللغة الواحدة، ومدى معرفتهم بمستويات دلالة الألفاظ، أو اختلاف دلالة الألفاظ بين البلدان الناطقة باللغة الواحدة ولكن بعاميات ولهجات متعددة.

٥. عدم مراعاة السنن في اللغة سبب في حصول الفشل التداولي.

٦. ثمة فارق بين الخطأ التداولي المرتبط بالفشل النحوي، الذي يكون عادة محكوما بضوابط صارمة قطعية، وبين الفشل التداولي الذي لا تكون ضوابطه صارمة، بل محكومة بتغيرات السياق وثقافة المتكلمين.

٧. ثمة فارق بين الفشل التداولي، وزلات اللسان التي يكون الناطق بها متواصلا تداولياً بشكل طبيعي.

٨. للتنغيم دور واضح في تحديد معنى المفردات والتراكيب، والخلط في استعماله يؤدي تغييرا كبيرا في معنى المفردات والتراكيب.

٩. نختلف مع (جيني توماس) في عدها الانتهاك لمبادئ الحوار ليس سببا من أسباب الفشل التداولي، فترى توماس بأن "الانتهاك" ربما يتطلب تفصيلا أكثر قبل استبعاده من الفشل التداولي؛ لأن المبادئ التداولية قواعد معيارية وليست إلزامية. ونرى بأن القواعد التداولية إلزامية وليست معيارية، فقد يكون الناطق ناجح لغويا في تبليغ الرسالة وفاشل تداوليا مع المتلقي.

١٠. نقترح تدريس النحو التداولي، المبني على قواعد الملائمة ومبادئ الحوار، وهنا نخرج عن دراسة صحة القواعد التركيبية إلى تدريس الطالب صحة التراكيب أو العبارات في

السياقات، أو تدريس اللغة في الاستعمال، وهذا من شأنه أن يقرب علوم اللغة إلى الواقع المعيش، ويرجم الهوة بين الدرس النظري الرتيب، والاستعمال البعيد عنه. لتصبح تلك القواعد أنماطا للحياة وضوابط تحكم عادات المتكلمين اللغوية.

هوامش البحث ومصادره :

(١) ينظر التحليل اللغوي عند مدرسة اكسفورد، صلاح اسماعيل عبد الحق: ٢١.

(٢) ينظر التواصل و فلسفة الفعل التواصلي، عمر كوش: ١-٢.

(٣) البيان والتبيين، الجاحظ (ت٢٥٥هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون،١: ١١.

(٤) كتاب الصناعتين(الكتابة والشعر) أبو هلال العسكري/٢١.

(٥) التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن:١٥٩.

(٦) ينظر الأسس الإبستوملوجية والتداولية للنظر النحو عند سيبويه: ٣٣٠.

(٧) ينظر المعنى وظلال المعنى، د. محمد محمد يونس:١٤٨-١٤٩.

(٨) ينظر النص والخطاب والاتصال، د. محمد العبد ٥٠- ٥.

(9) Jenny Thomas ,1982, *Cross-Cultural Pragmatic Failure, Applied Linguistics,* Vol. 4, No. 2, p. 96.

(10) Jenny Thomas ,1982, *Cross-Cultural Pragmatic Failure, Applied Linguistics,* Vol. 4, No. 2, p. 96.

(11) Jenny Thomas ,1982, *Cross-Cultural Pragmatic Failure, Applied Linguistics,* Vol. 4, No. 2, p.103

(12) Jenny Thomas ,1982, *Cross-Cultural Pragmatic Failure, Applied Linguistics,* Vol. 4, No. 2, p.105

(١٣) ينظر جمهرة الامثال، ابو هلال العسكري ٢: ٢٦٦-٢٦٧.

(١٤) ينظر لسان العرب ١: ١٣٦.

(١٥) ينظر اللغة والخطاب، عمر أوكان: ٦.

(١٦) ينظر تاج العروس ١: ٢٢٨- ٢٢٩.

(17) Jenny Thomas ,1982, *Cross-Cultural Pragmatic Failure, Applied Linguistics,* Vol. 4, No. 2, p.94

(18) Jenny Thomas ,1982, *Cross-Cultural Pragmatic Failure, Applied Linguistics,* Vol. 4, No. 2, p.97

(١٩) ينظر تحليل الأخطاء اللغوية لدارسي اللغة العربية للمستوى الرابع من الطلبة الكوريين في مركز اللغات / الجامعة الأردنية، منى العجرمي هالة حسني بيدس، مجلة دراسات للعلوم الإنسانية والاجتماعية مج ٤٢ ملحق ١ ٢٠١٥: ١٠٩١.

(٢٠) ينظر نفسه: ١٠٩٣.

(21) Jenny Thomas ,1982, *Cross-Cultural Pragmatic Failure, Applied Linguistics,* Vol. 4, No. 2, p.95

(٢٢) ينظر، دور التنغيم في تحديد معنى الجملة العربية،د. سامي عوض و عادل علي نعامة، مجلة جامعة تشرين للدراسات و البحوث العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٢٨) العدد (١)٢٠٠٦:٩٣.

(٢٣) شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح، تحقيق د. طه محسن: ١٤٦

(24) Quirk & Greenbaum, 1985, A university grammar of English, Oxford: Oxford University press, p.189

(٢٥) الدلالة والقصدية في ضوء النظرية التداولية- "زلاَّت اللسان مثلاً، مقال على شبكة الانترنت:"فكري آل هير.

(26) Jenny Thomas ,1982, *Cross-Cultural Pragmatic Failure, Applied Linguistics,* Vol. 4, No. 2, p.95

(27) Jenny Thomas ,1982, *Cross-Cultural Pragmatic Failure, Applied Linguistics,* Vol. 4, No. 2, p.95-96

(٢٨) ينظر التداولية من أوستين إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، ترجمة صابر حباشة / ٨٤-٨٥.

(٢٩) ينظر أدب الدنيا والدين أبو الحسن الماوردي، محمد كريم راجح/ ٢٨٣.

(٣٠) ينظر الخطاب اللساني العربي ٢/ ٢٨٩- ٢٩٠.

(31) Jenny Thomas ,1982, *Cross-Cultural Pragmatic Failure, Applied Linguistics,* Vol. 4, No. 2, p.97

(32) Jenny Thomas ,1982, *Cross-Cultural Pragmatic Failure, Applied Linguistics,* Vol. 4, No. 2, p.97

(٣٣) كتاب سيبويه، تحقيق عبد السلام محمد هارون ١: ٢٥-٢٦.

(٣٤) ينظر التداولية في الدراسات النحوية، د. عبد الله جاد الكريم: ٢٦٧.

(٣٥) ينظر، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، د. نهاد الموسى:٨٨.

(٣٦) كتاب سيبويه ١: ٣٤٣.

(٣٧) ينظر، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث:٨٩.

(٣٨) ينظر، اللسان والميزان (التكوثر العقلي)، طه عبد الرحمن :٢٤٦.

(٣٩) البيان والتبيين ١: ٩٣.

(٤٠) ينظر استراتيجيات الخطاب / ١٠٩ -١١٠.

(٤١) ينظر استراتيجيات الخطاب / ١١٣

(42) Jack C. Richards, 2013, interchange: student's book, level 3, fourth Edition, Cambridge: Cambridge University press, p. 17.

(43) Jenny Thomas ,1982, *Cross-Cultural Pragmatic Failure, Applied Linguistics,* Vol. 4, No. 2, p.98

روافد البحث

- القرآن الكريم.
- أدب الدنيا والدين أبو الحسن الماوردي (ت٤٥٠هـ)، محمد كريم راجح، دار اقرأ، بيروت، ط٤ ١٩٨٥.

- استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتب الجديدة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.
- الأسس الابستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، د. ادريس مقبول، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ٢٠٠٧ م.
- البيان والتبيين، الجاحظ (ت٢٥٥هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، ط٧ ١٩٩٨،.
- تاج العروس من جواهر القاموس،محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي(ت ١٢٠٥هـ) تحقيق مجموعة من المحققين دار الهداية.
- التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن الزملكاني، تحقيق د. أحمد مطلوب، د. خديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ط١، ١٩٦٤م.
- تحليل الأخطاء اللغوية لدارسي اللغة العربية للمستوى الرابع من الطلبة الكوريين في مركز اللغات / الجامعة الأردنية، منى العجرمي هالة حسني بيدس، مجلة دراسات للعلوم الإنسانية والاجتماعية مج ٤٢ ملحق (١)٢٠١٥.
- التحليل اللغوي عند مدرسة اكسفورد، صلاح اسماعيل عبد الحق، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٣.
- التداولية في الدراسات النحوية، د.عبد الله جاد الكريم، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠١٤م.
- التداولية من أوستن إلى غوفمان، فيليب فلانشيه، ترجمة صابر حباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع اللاذقية، سوريا، ط١، ٢٠٠٧م.
- التواصل و فلسفة الفعل التواصلي، عمر كوش.
- جمهرة الامثال، ابو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) ضبطه وحرك أحاديثه، د. أحمد عبد السلام، محمد سعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٨.
- الدلالة والقصدية في ضوء النظرية التداولية- "زلاَّت اللسان مثلاً، مقال على شبكة الانترنت:"فكري آل هير.
- الخطاب اللساني العربي (هندسة التواصل الاضماري)د. بنعيسى عسو ازابيط، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، اربد، الأردن ط١ ٢٠١٢.
- دور التنغيم في تحديد معنى الجملة العربية، د. سامي عوض و عادل علي نعامة، مجلة جامعة تشرين للدراسات و البحوث العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٢٨) العدد (١) ٢٠٠٦.
- شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح، جمال الدين بن مالك الاندلسي (ت٦٧٢هـ)، تحقيق د. طه محسن، مكتبة ابن تيمية، ط٢، ١٤١٣هـ.
- كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، أبو هلال العسكري، تحقيق محمد أمين الخانجي،مطبعة محمود بك، الأستانة،١٣٢٠هـ.
- كتاب سيبويه-أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه (١٨٠هـ)-تحقيق: عبد السلام محمد هارون-عالم الكتب بيروت-ط١/ ١٩٦٣م.
- لسان العرب، ابن منظور (ت ٧١١هـ) دار صادر بيروت ط ١.
- اللسان والميزان (التكوثر العقلي) د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٩٨م.
- اللغة والخطاب، عمر أوكان، رية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠١١.
- المعنى وظلال المعنى(أنظمة الدلالة في العربية)، د. محمد محمد يونس، دار المدار الإسلامي، بنغازي، ليبيا، ط٢، ٢٠٠٧م.
- النص والخطاب والاتصال، د. محمد العبد، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م.
- نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، د. نهاد الموسى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٠.

المصادر الاجنبية:

- Jack C. Richards, 2013, Interchange: Student's Book, Level 3, fourth Edition, Cambridge: Cambridge University press.
- Jenny Thomas ,1982, Cross-Cultural Pragmatic Failure, Applied Linguistics, Vol. 4, No. 2.
- R.Quirk &S. Greenbaum, 1985, A University Grammar of English, Oxford: Oxford University press.